الشاعر حافظ جميل (*) بقلمه

رسالة موجهة للباحث أ.د. صالح علي الجميلي في عام 1981

1- انا حافظ بن عبد الجليل بن احمد بن عبد الرزاق بن خليل بن عبد الجليل بن جميل عميد أسرة الجميل المعروفة في العراق.

ولدت ببغداد سنة 1908 للميلاد واتممت فيها الدراستين الابتدائية والثانوية والتحقت سنة1925بالجامعة الامريكية ببيروت وتخرجت فيها سنة 1929حائزا على درجة بكلوريوس في العلوم، وفي تلك السنة نفسها عينت مدرسا في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد لتدريس التاريخ الطبيعي، (وهو الفرع الذي تخصصت فيه في الجامعة) وكذلك لتدريس الترجمة. وفي سنة 1930 نقلت الى دار المعلمين الابتدائية ببغداد لتدريس اداب اللغة العربية. وفي سنة 1931 نقلت مرة اخرى الى الثانوية المركزية ببغداد لتدريس علوم اللغة العربية وادابها. وقبل انتهاء تلك السنة نقلت الى ثانوية البصرة بسبب القائي قصيدة بمناسبة (9شعبان) اعتبرها المسؤولون انئذاك تنديدا بالحكم القائم في العراق، ولم امكث في البصرة غير شهر واحد اضطررت بعده الى تقديم استقالتي من مهنة التدريس بسبب المضايقات التي جابهتها من دوائر الشرطة في البصرة، وعدت الى بغداد في شباط سنة 1932 وبقيت بدون عمل حتى تشرين الاول 1932 حيث عينت موظفا في وزارة المالية حتى سنة 1940، حيث نقلت الى وزارة المواصلات والاشغال فتقلدت فيها عدة وظائف منها مدير بريد وبرق الموصل من 1950/4/11 الى 1950/10/21 كان اخرها وظيفة مفتش عام للبريد والبرق والهاتف. وفي منتصف سنة 1963 طلبت احالتي على التقاعد بسبب ظروف عيني الصحية وذلك بعد ان اجريت لي ثلاث عمليات جراحية في كلتا عيني لم تكلل اية واحدة منها بالنجاح، والتي تركتني الى حد يومي هذا منقطعاً عن القراءة والكتابة الا عند الضرورة الملحة فقط.

2- نشأتي الادبية

كنت وانا يومئذ تلميذ في المدرسة الابتدائية خلال السنوات من سنة1918 حتى سنة 1921 اتعشق درس المحفوظات الشعرية واوثره على بقية الدروس، كما كنت احس به من ميل شديد الى حفظ الشعر وانشاده بين زملائي طلاب المدرسة لانال اعجابهم واستحسانهم، حتى وصل الامر بهيئة التدريس في مدرستي الابتدائية الى اختياري في كل حفلة مدرسية لالقاء ما يملى إليّ من الشعر على الحاضرين. ولمّا احس والدي بميلي هذا عكف على تدريسي مختلف علوم اللغة العربية بما فيها العروض. كما اخذ يقدم إليّ ما لديه من الدواوين الشعرية لمطالعتها وحفظ ما يلذ لي حفظه منها. وعند تخرجي من المدرسة الابتدائية وانتقالي الى المدرسة الثانوية اتيح لي ان اتتلمذ في اللغة العربية على يد استاذين فاضلين هما المرحومان طه الراوي ومنير القاضي اللذان وجدا فيّ ألمع تلميذ في المدرسة يستحق العناية به والعكوف على تنشاته نشاة ادبية، بحيث لم يمرّ عليّ وقت طويل حتى بدات اقرض الشعر وانا لا اتجاوز الرابعة عشرة من عمري، واعرضه عليهما فانال منهما كل تشجيع واعجاب، الامر الذي هيأ ان اصدر اول ديوان شعري لي باسم (الجميليات) وذلك سنة 1923 على اثر فوزي بالجائزة الاولى لمسابقة شعرية جرت بين الشعراء الشباب آنئذاك. وقد كتب لي مقدمة ذلك الديوان المرحوم منير القاضي كما قرضه الكثيرون من الشعراء والادباء وعلى رأسهم الشاعر العراقي الكبير المرحـــــوم (جميل صدقي الزهاوي).

وعند التحاقي بالجامعة الامريكية في بيروت تفتحت لي صفحة جديدة من صفحات حياتي الادبية، ذلك انني واصلت دراسة علوم اللغة العربية وآدابها الى جانب دراستي لشيء غير قليل من الادب الانكليزي سيما لشكسبير، على الرغم من انني جعلت اختصاصي في الجامعة علم التاريخ الطبيعي (Bilogy)، وهناك في الجامعة الاميركية تعرفت على كثيرين من زملائي الشعراء الشباب كما اتصلت بكثيرين من شعراء بيروت البارزين امثال شبلي الملاط والاخطل الصغير وعبد الرحيم قليلات وغيرهم، وبدأ شعري يتبلور من مرحلة التقليد الى مرحلة الابتكار ومعالجة المواضيع المختلفة، على الرغم من انني كنت أوثر الشعر الغزلي على غيره من الالوان الشعرية الاخرى وذلك بسبب البيئة التي وجدت نفسي فيها. ومع ذلك فقد نظمت كثيراً في المواضيع الوطنية والاجتماعية. ويؤسفني ان اقول ان جميع شعري الذي نظمته في الفترة بين سنة 1923 حتى سنة 1932 قد ضاع بسبب ضياع مجموعتي الشعرية المخطوطة، ولم يسلم من الضياع منه الا ما كنت قد نشرته في حينه من الشعر في مختلف الصحف والمجلات.

قلت انني استقلت من مهنة التدريس سنة 1932 وعينت في اواخر تلك السنة موظفاً في وزارة المالية، وقد اشترط عليّ المسؤولون في الدولة العراقية آنئذاك ان

اهجر الشعر نهائياً وكل شيء يمت الى الادب بصلة، والا اعادوا النظر في تعييني موظفاً في الدولة فوعدتهم بتلبية طلبهم وانقطعت عن قرض الشعر حتى سنة 1944، أي قرابة اثنتي عشرة سنة لم انظم فيها بيتاً واحداً من الشعر. غير انني اضطررت في سنة 1944 أن أتحلل من وعدي بهجر الشعر وعدت اليه بعد الحاح متواصل من كثير من الاصدقاء الذين عزَّ عليهم ان اطوي صفحة هي من اجمل صفحات حياتي التي عرفتنيّ على الناس وعرفتّهم عليّ حتى استطعت في سنة 1957 أن اصدر ديوان الثاني (نبض الوجدان)، الذي يحتوي على جميع ما نظمته خلال الفترة من سنة 1944 حتى تاريخ صدور الديوان، مضافاً اليه ما كان قد سلم من شعري من الضياع خلال الفترة بين سنة 1923 حتى سنة 1932.

وفي سنة 1966 نشرت لي وزارة الثقافة والارشاد في العراق ديواني الثالث وهو (اللهب المقفى) ولديّ الان ديوان رابع جاهز للطبع باسم (احلام الدوالي).

3ـ الشعراء الذين تأثرت بهم :

كان اول ديوان شعري قدمه اليّ والدي بعد ان احس بميلي الشديد الى الشعر هو ديوان الشاعر العراقي المعروف (عبد الغفار الاخرس). وقد انكببت على مطالعة هذا الديوان وحفظ الشي الكثير منه. وفي المدرسة الثانوية استهواني شعر ابي نواس فأقتنيت نسخة من ديوانه ولازمته قرابة ثلاث سنوات متواصلة بالمطالعة والحفظ حتى كدت التهمه التهاما. وعند التحاقي بالجامعة الامريكية في بيروت اصطحبت ديوان ابي نواس للرجوع اليه والاستئناس به كلما سنحت الفرصة لي بذلك، وهناك في الجامعة اتيح لي ان اقتني ديواني ابن الرومي والمتنبي فدرستهما دراسة واسعة وحفظت منها الشئ الكثير، وقد كتبت وانا طالب في الجامعة يومئذ عدة بحوث عن ابي نواس وابن الرومي ونشرت معظم تلك البحوث في مختلف المجلات اللبنانية، وعند عودتي الى العراق وانخراطي في سلك التدريس تناولت ديوان شوقي بالدراسة والحفظ حتى سنة 1932، وهي السنة التي تركت فيها مهنة التدريس وانقطعت عن كل شيء يمت الى الادب بصلة حتى سنة 1944 كما ذكرت ذلك انفا، كان هؤلاء الشعراء الخمسة (الاخرس) و (ابونواس) و (ابن الومي) و(المتنبي) و(شوقي) هم ائمتي في نشأتي الشعرية، ولا يعني هذا انني لم اقرأ ولم احفظ لغيرهم من الشعراء، فقد قرأت لمعظم شعراء العربية في مختلف عصورهم وازمنتهم منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا وحفظت لهم الشيء الكثير، ولكن الذي اعنيه هو ان اولئك الشعراء الخمسة الذين نوهت عنهم كان لهم القدح المعلى في انكبابي على حفظ شعرهم ودراستي له دراسة واسعة.

4ـ طابعي الشعري:

ـ لقد نظمت في مختلف المواضيع في السياسة الوطنية والاجتماع والغزل والشهرة وغير ذلك من ابواب الشعر، غير ان الذين كتبوا وهم غير قليلين سواء فيما

اوردوه في كتبه او فيما نشروه في الصحف والمجلات. اقول اولئك الكتاب يكادون يجمعون على امرين هامين:

الأول: انني في خمرياتي قد بلغت شأوا قصر عنه كل من نظم في هذه الباب بعد ابي نواس، حتى ان بعضهم لم يتردد في ان يصفني (بأبي نواس العصر الحديث)، كما ان بعضهم قد ذهب الى ابعد من ذلك ورأى في قصائدى في الخمرة من المعاني والفلسفة والابتكار ما لم يتيسر لأبي نواس. وعلى كل فإن تقدير هذا متروك لمن يدرس او سيدرس في المستقبل قصائدي في الخمرة تلك القصائد التي انا مزمع على جمعها في ديوان واحد في المستقبل القريب ان شاء الله.

الثاني: أنني شاعر وجداني الى حد بعيد وان مسحة الحزن والالم تكاد تطغى على جميع قصائدي الوجدانية بما فيها الغزل والنسيب، هذا اذا لم اقل ان بعضهم يرى في جميع شعري طابع الاسى والمرارة.

لقد كتب الدكتور (بدوي طبانة) استاذ النقد الادبي بجامعة القاهرة في مقدمته لديواني (اللهب المقفى) يقول:

(وفي شعر حافظ ملامح من فلسفة ابي العلاء وتشاؤمه من الحياة ومن المجتمع الذي عبر حافظ كثيراً عن علله وآفاته. وعن مصارع الاخلاق فيه. وقد اخفى ذلك التشاؤم عن الشاعر كثيراً من مفاتن الحياة ومباهجها على الرغم من احتفاله بها. وهذا هو الفرق بين حافظ وبين ابي العلاء. ان ابا العلاء قد زاول الفلسفة نظراً في كلامه وفي شعره كما زاولها سلوكاً في حياته وزهاته وصدوفه عن الدنيا التي عد وجوده بها جناية عليه. اما حافظ فانه يجد معالم الشر ولا يجد لنفسه ملاذاً الا في احضان الكاس تذهب في ومضاتها اشجانه وتذوب في رشفاتها همومه).

ثم يزيد الدكتور (بدوي طبانه) على ذلك ويقول (هذه الالام عند حافظ مدعاة عكوفه على الخمر، وهي التي دفعته كما دفعت غيره من هواتها الى الفرار من الواقع المر والتحليق في اودية الخيال، وتعمد البعد عن عالم الوعي والشعور الى حيث يظنون المتعة والسلوى في صحة الراح وفي مجالس الانس والطرب.

ولكن اين هي الالام في حياة حافظ ؟ ان تلك الالآم لا يمكن ان تكون آلام الحاجة او العدم التي كست شعر المعدمين مسحه من الالم والكآبة. فقد عرفته صاحب سيارة فخمة ومنزل انيق يحيا حياة الموسرين الذين لايقترّون على انفسهم ولا على المتصلين بهم. اذاً لا بد وان تكون تلك الالآم آلاماً نفسية ورواسب كامنة في اعماق نفسه الشاعرة... الخ.

وحسبي مصداقاً على ما اورده الدكتور طبانه من تعليل لسبب آلامي قولي في مرثيتي لاستاذي العلامة السيد منير القاضي حين اقول:

ولرب مخدوعين بي لم يلهجوا

الا بما انا فيه من نعمـــــاء
ظنوا حياتي بدؤها وختامها
وقفاً على اللذات والاهــواء
يا ويحهم جهلوا حقيقة علتي
واستشهدوا بظواهر الاشيـــاء
اهو النعيم اذا تقطع بالاسى
قلبي ولاح البشر في سيمـــــائي
لو كنت ادري مالحياة وكنهها
لقتلتها سفهاً بغيـــر حيــاء
ولعشت اوفر صحة وسعادة
ممن يؤنبني مــن العقـــــلاء

توفي يوم الاثنين الموافق 1984/5/3**.**

(*) شاعر بغدادي آثرت تثبيته مع شعراء الموصل لانه عمل مديراً لبريد وبرق الموصل لمدة طويلة.

بغـــداد حافظ جميل